

أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ

تأملات في حدود المعرفة وتواضع العقل وبصيرة الحقيقة



رَدَّادُ السَّلَامِي

أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ

تأملات في حدود المعرفة وتواضع العقل وبصيرة الحقيقة

رَدَّادُ السَّلَامِيُّ

مقدمة منهجية

حين يأتيك ما لا تعرف من حيث لا تحتسب

في القرآن مشاهد لا تنتهي بانتهاأ أحداثها، لأنها لم تُرو لتبقى حبيسة الزمن الذي وقعت فيه، وإنما لتتحول إلى مرايا كبرى يرى فيها الإنسان نفسه كلها تغيرت الأزمنة وتبدلت أدوات المعرفة واتسعت خرائط القوة. ومن أبلغ هذه المشاهد ذلك اللقاء المدهش بين سليمان عليه السلام والهدهد؛ إذ لا تبدو المفارقة في أن طائراً رأى شيئاً لم يره الملك فحسب، وإنما في أن القرآن اختار أن يجعل واحداً من أصغر عناصر المملكة حاملاً إلى رأسها معرفةً لم تكن قد دخلت بعد في أفقه، وأن يجعل الهدهد يقف أمام نبيِّ ملكٍ آتاه الله سلطاناً واسعاً، ثم ينطق بهذه الجملة المهيبة: ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ﴾.

إنها جملة تبدو، لأول وهلة، تقريراً لمعلومة؛ لكنها في عمقها زلزال صغير في فلسفة المعرفة. فالذي يملك المملكة لا يملك بالضرورة كل ما يقع داخل العالم، والذي تهيأ له الجيوش والجن والإنس والطير لا يعني ذلك أن الكون قد صار مكشوفاً أمامه، والذي يستطيع أن يُصدر الأمر إلى آلاف المخلوقات قد يحتاج، في لحظة ما، إلى مخلوق صغير ليضيف إلى وعيه حقيقةً لم تكن فيه. وهكذا يُسقط القرآن من أذهاننا وهماً عتيقاً: أن اتساع القوة يساوي اتساع المعرفة، وأن علو الموقع يقتضي شمول الرؤية، وأن من كان في القمة لا يمكن أن يأتيه النقص من أسفل.

لم يقل الهدهد: رأيت شيئاً عجيباً، ولم يقل: بلغني خبر لا تعرفه، ولم يقدم نفسه باعتباره ناقلاً مضطرباً أو شاهداً متردداً، وإنما اختار القرآن على لسانه لفظاً من أثقل ألفاظ المعرفة وأشدّها امتلاءً: ﴿أَحَطْتُ﴾. والإحاطة ليست مجرد وقوع البصر على الشيء، وإنما هي بلوغ من الإدراك يجعل الخبر محكماً في النفس، واضح الحدود، متماسك المعالم، بحيث يستطيع ناقله أن يقف به أمام سلطة عظيمة غير مرتجف من جلال المقام، لأن الحقيقة التي يحملها في تلك اللحظة أكبر من الفارق بين جناح طائر وعرش ملك.

وهنا يبدأ هذا الكتيب؛ لا من مملكة سبأ بوصفها رقعةً جغرافية مضت، ولا من الهدهد بوصفه مخلوقاً عجيباً في قصة قديمة، وإنما من السؤال الذي ينهض خلف المشهد: ماذا يعني أن يعرف الصغير ما يجمله الكبير؟ وماذا تفعل الحقيقة حين تقع في يد من لا يملك من أسباب القوة إلا صدقها؟ وكيف يمكن أن يظل العقل متواضعاً مهما اتسعت معارفه؟ وماذا يبقى خارج خرائطنا مهما أحكمتها؟ ثم كيف تقف هذه الآية في عصر الإنسان الذي بنى الأقفار الصناعية، وأطلق المراسد إلى أعماق الكون، وجمع في خوادمه مليارات الصفحات، وصنع خوارزميات تستطيع أن تستخرج من البيانات ما لم يكن عقل فرد واحد قادراً على استخراجه، ثم بدأ يتسلل إليه الوهم نفسه: أننا اقتربنا من الإحاطة؟

إن القرآن لا يحارب المعرفة، بل يحرقها من الغرور، ولا يصغر العقل، بل ينقذه من عبادة نفسه، ولا يريد للإنسان أن يجهل، وإنما يريد له كلما عرف أن يزداد وعياً

بمقدار ما لم يعرف. فالمشكلة ليست في أن تتسع معرفتك، وإنما أن تتوهم أن اتساعها قد ألغى حدودها؛ وليست الكارثة أن يكون في العالم ما لا تدركه، وإنما أن تفقد القدرة على تخيل وجود شيء خارج إدراكك.

ولهذا فإن قول المدهد: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ ليس انتقاصاً من سليمان عليه السلام، بل هو واحد من أجمل مشاهد كماله؛ لأن عظمة العالم ليست في ألا يأتيه ما لم يعلم، فذلك ممتنع على البشر، وإنما في أن يكون قلبه وعقله من السعة بحيث يستمع إلى الحقيقة ولو جاءت من جناح صغير. وليس التواضع المعرفي أن تقلل من قيمة ما تعرف، بل أن تعرف موضع معرفتك من محيط المجهول، وأن تستطيع، وأنت على أعلى درجات القوة، أن تقول للخبر القادم من الهامش: هات ما عندك.

ومن هنا سنسير في أربعة فصول؛ من شجاعة اليقين التي تمنح الحقيقة صوتها، إلى عمى القوة الذي قد يصيب أصحاب المواقع الواسعة، ثم إلى فلسفة الإحاطة ومعنى المعرفة المكتملة، ثم إلى الإنسان المعاصر وقد أحاط نفسه بالشاشات والبيانات والخوازميات، لكنه لا يزال، أمام علم الله، مخلوقاً يقف على شاطئ لا يرى من البحر إلا ما أذن الله له أن يرى.

الفصل الأول

شجاعة اليقين

حين تكون الحقيقة أكبر من صاحبها

ثمة لحظة عجيبة في المشهد القرآني ينبغي ألا تمر على القلب مروراً سريعاً: هدهد صغير يقف أمام سليمان. وليست المسافة بينهما مسافة حجم فحسب؛ إنها مسافة موقع وسultan وهيبة. سليمان عليه السلام ليس رجلاً عادياً يستمع إلى طائر عابر، وإنما نبيٌّ مَلِكٌ قال الله في ملكه ما يدل على سلطان فريد، ونُخِرَتْ له قوى تتجاوز المألوف، وانتظمت أمامه الجيوش، وعرف مواقع جنوده حتى لاحظ غياب هدهد واحد. ومع ذلك يأتي هذا الهدهد، لا بلغة المنكسر الذي يطلب النجاة، وإنما بلغة من يملك شيئاً لا يملكه الملك في تلك اللحظة: المعرفة.

إن الحقيقة تمنح حاملها نوعاً خاصاً من القوة، قوة لا تشبه السيف ولا العرش ولا الجيش؛ فهي لا تضيف إلى الجسد عضلات، ولا إلى المنصب درجات، لكنها تمنح اللسان ثباتاً غريباً. والذي يعرف يقيناً لا يحتاج أن يستمد ثقته من ذاته كلها، بل يكفي أن يستمدّها من صدق ما يعرف. ولهذا لم تكن جرأة الهدهد ناشئة عن تضخم في تقديره لنفسه؛ فلم يقل: أنا أعلم منك، ولا أنا أبصر منك، ولا جعل الخبر سلماً يرفع عليه ذاته، وإنما نسب الإحاطة إلى موضع محدد: ﴿بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ﴾. وهذه دقة أخلاقية مذهلة؛ فهو لا يدعي الإحاطة المطلقة، وإنما يتكلم عن دائرة مخصوصة أصبحت داخلةً في علمه ولم تدخل بعد في علم سليمان.

هنا تتجلى إحدى أنبل صور الثقة: أن تكون شديد اليقين فيما تعلم، شديد التواضع فيما عداه. فالغرور يقول: لأنني أصبت هنا فأنا أصيب في كل مكان، أما المعرفة الرشيدة فتقول: في هذه المسألة لدي ما ليس لديك، وربما في ألف مسألة لديك ما ليس لدي. ومن ثم لم تتحول المعرفة عند الهدهد إلى كبرياء، وإنما تحولت إلى أمانة؛ لأنه عاد بها إلى موضعها الصحيح، إلى القيادة التي تستطيع أن تتخذ على ضوءها قراراً يتجاوز قدرته الفردية.

إن اليقين الحق لا يصرخ كثيراً؛ لأنه لا يحتاج إلى الصراخ كي يثبت وجوده. الزيف وحده يطلب من صاحبه أن يرفع صوته لتعويض ما ينقص حجته، أما الحقيقة فتمشي في الكلام بهدوء المطمئن إلى أن ثقلها في داخلها. ولعل هذا هو السر في الهيبة التي تصنعها العبارة القرآنية: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾. لم يقل خبراً كثيراً، ولا خبراً مخيفاً، ولا خبراً سيقبله المملكة؛ وصفه فقط باليقين، فكأن كل الصفات الأخرى تصبح ثانوية حين نتأكد صلة الخبر بالحقيقة.

كم من الناس يملكون مواقع عالية ولا يملكون يقيناً، وكم من الناس لا يملكون إلا جملة واحدة صحيحة فتكون جملتهم أقوى من مؤسسات كاملة قائمة على الوهم. التاريخ الإنساني ليس فقط صراع قوى، بل كثيراً ما كان صراعاً بين حقيقة ضعيفة الأدوات وأكذوبة هائلة التجهيز؛ وبين إنسان لا يملك إلا بصيرته وبين منظومة تملك المناير والموارد والسلطة، ثم تدور الأيام فيثبت أن ما كان يبدو هشاً كان أصلب من

الحديد، لأن الحديد يمكن كسره بقوة أعلى، أما الحقيقة فلا يُطلبها تفوق الخصم عليها في العدد.

وليس المقصود أن كل من ادعى الحقيقة صار شجاعاً بالضرورة؛ فكم من جاهل يندفع بثقة أشد من ثقة العالم، وكم من وهم يتكلم بلسان اليقين. لذلك لم يكتف القرآن بجرأة الهدهد، بل أتبعه بمنهج التثبيت؛ فقال سليمان عليه السلام: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. وهذه إضافة بالغة الأهمية إلى فلسفة المعرفة في القصة؛ فالثقة التي يتحدث بها صاحب الخبر لا تعني المتلقي من التحقق، واليقين الشخصي لا يتحول وحده إلى حقيقة عامة حتى يمر من بوابة الاختبار. إن مشهد الهدهد يعلم حامل المعرفة الشجاعة، ويعلم متلقيها التثبيت؛ فلا تهزنا هيبة المتكلم فنصدقه بلا برهان، ولا تمنعنا ضالة المتكلم من أن نستمع إلى ما لديه.

وما أروع المسافة الأخلاقية بين قول الهدهد: ﴿أَحَطْتُ﴾ وقول سليمان: ﴿سَنَنْظُرُ﴾. الأول يعبر عن وثوق صاحب الخبر بما شاهد، والثاني يعبر عن مسؤولية القيادة في التحقق مما وصل إليها. وبين الكلمتين يولد نظام معرفي كامل: شاهد يصدق في النقل، وعقل يختبر قبل الحكم، وحقيقة لا تخشى الامتحان.

إن الإنسان يخاف غالباً حين يجد نفسه أصغر من المقام الذي يتكلم فيه، فيرتبك لا لأن فكرته ضعيفة، بل لأن صورة الطرف الآخر تكبر في داخله حتى تضغط على ما يعرفه. وقد يتحول احترام المنصب إلى خوفٍ من قول الحقيقة، فيصبح المرء عارفاً ولكنه صامت، وتصبح المؤسسة محاطةً بأشخاص يرون الخلل ولا يملكون جرأة

الهدهد. عندها لا تكون الكارثة في غياب المعرفة، بل في انقطاع الطريق بينها وبين من يحتاجها.

وكل منظومة تخيف أفرادها من قول: «أحطت بما لم تحط به» هي منظومة تُعمي نفسها بيدها؛ لأن القيادة مهما اتسعت عيونها ستظل بحاجة إلى عيون أخرى. إن القائد الذي لا يسمع إلا ما يعرفه مسبقاً لا يملك مستشارين، وإنما يملك أصدقاء لصوته، والمؤسسة التي لا تسمح لأصغر أفرادها أن يقول للأعلى منه: ثمة شيء لم تره، قد تبدو شديدة الانضباط من الخارج، لكنها تكون في الداخل قد بدأت تخسر حواسها.

غير أن شجاعة اليقين لا تعني الوقاحة، ولا إزالة مراتب الاحترام، ولا تحويل المعرفة إلى سلاح لإذلال الآخرين. فالهدهد لم يقل لسليمان: جهلّ وأنا علمت، ولم يجعل الفارق المعرفي مناسبةً للنيل من مقامه؛ بل جاء بالنبأ، ووضع أمامه، ثم ترك للحقيقة أن تؤدي وظيفتها. وهذا هو الفرق بين صاحب العلم وصاحب عقدة التفوق: الأول يريد أن ينتصر الحق، والثاني يريد أن ينتصر هو. الأول يشعر أن المعرفة أمانة ينبغي إصاها، والثاني يشعر أنها منصة ينبغي أن يرتفع عليها فوق الناس.

فكم نحتاج، في زمن تمتلئ فيه المنابر بالثقة ولا تمتلئ دائماً باليقين، إلى أن نستعيد هذا الأدب الدقيق: قوة في قول ما نعلم، وتواضع في حدود ما نعلم، واستعداد لأن نعرض ما نعلم للاختبار. إن شجاعة الحقيقة لا تأتي من أن يقول الإنسان: أنا لا

أخطئ، بل من أن يقول: هذا ما ثبت لدي، وهذه أدلتي، وأنا لا أخاف أن يُختبر ما أقول.

والحقيقة في النهاية لا تسأل حاملها عن حجمه قبل أن تمنحه قوتها. قد تكون في فم طفل، أو في تقرير موظف صغير، أو في ملاحظة إنسان لم يلتفت إليه أحد، أو في تجربة عالم لم يعرفه الناس بعد؛ لكنها حين تكون حقيقة تصبح أكبر من جسد حاملها، وتكتسب من ذاتها هيبتها. ولعل المهدد في تلك اللحظة لم يكن كبيراً لأنه هدهد، بل لأن الحقيقة كانت تقف على جناحيه.

الفصل الثاني

عمى القوة وبصيرة الضعف

لماذا يحتاج العظيم إلى عين صغيرة؟

القوة توسّع قدرة الإنسان على الفعل، لكنها لا توسع بالضرورة قدرته على الرؤية. بل ربما حدث العكس؛ إذ كلما تضخم الموقع اتسعت المسافة بين صاحبه وبين التفاصيل الصغيرة التي يتشكل منها الواقع. فالملك يرى المملكة من أعلى، ولكنه لا يستطيع أن يقف في كل وادٍ والقائد يرى حركة الجيش، لكنه لا يستطيع أن يسكن في عين كل جندي؛ وصاحب المؤسسة تحيط به التقارير والأرقام، لكنه قد لا يسمع ارتجاف صوت موظف في آخر السلم الإداري، مع أن ذلك الارتجاف ربما كان أول علامة على خلل سيتضخم يوماً حتى يصل إلى مكتبه.

إن للقوة زاوية رؤية، كما للضعف زاوية رؤية. وليس معنى هذا أن الضعيف أبصر دائماً أو أن القوي أعمى دائماً، بل إن اختلاف المواقع ينتج اختلافاً في المشاهد. الذي يقف فوق الجبل يرى ما لا يراه من في الوادي، والذي يمشي داخل الوادي يرى صخرةً وشقاً ومسار ماء لا يراه من فوق الجبل. كلاهما يحتاج إلى الآخر كي تكتمل الخريطة. ومأساة القوة تبدأ عندما تتحول زاوية الرؤية إلى وهم الإحاطة، فيعتقد صاحب الموقع المرتفع أن ما لا يراه غير موجود.

سليمان عليه السلام، على اتساع ملكه، لم يكن في سبأ حين كان الهدهد هناك. وهذه الحقيقة البسيطة تهدم كثيراً من أوهام السلطة: لا يمكنك أن تكون في كل

مكان، مهما اتسعت أدواتك. ولا يمكنك أن ترى بعينك كل ما يتعلق بمسؤوليتك. إنك تحتاج إلى عيون موزعة في الجغرافيا، وفي المجتمع، وفي طبقات المعرفة؛ تحتاج إلى من يرى من زاوية لا تستطيع الوصول إليها.

واللافت أن الهدهد لم يكن مجرد ناقل يريد أرسل فعاد، بل يبدو من سياق خبره أنه لاحظ، وفهم، وميز، وربط بين المظهر والعقيدة، وبين ملك المرأة وقومها وبين سجودهم للشمس من دون الله. لم تكن مهمته أن ينقل صورة سطحية، بل قدّم قراءة للواقع. وهنا تجلّى بصيرة «الهامش» حين يكون يقطاً؛ إنه لا يكتفي بأن يوجد في الأطراف، بل قد يلتقط من موقعه ما لا تلتقطه عين المركز.

والقادة الكبار لا يصنعهم فقط حسن إصدار الأوامر، بل حسن استقبال ما يأتي من خارج دائرة توقعاتهم. إنك تستطيع أن تعرف طبيعة القيادة من الطريقة التي تستقبل بها خبراً لم يكن موجوداً في تصورها السابق: هل تنزعج لأن الواقع لم يطابق الصورة التي رسمتها؟ هل تعتبر المعلومة الجديدة تهديداً لهيبتها؟ أم تسع لها، ثم تعيد ترتيب قراراتها على ضوءها؟

من أخطر أنواع العمى أن يظن الإنسان أن مكانته تمنحه حصانة من الجهل. حينها يصبح الاعتراف بـ«لا أعلم» في نظره خسارةً للهيبة، فيضطر إلى صناعة أجوبة لما لم يعرف، وإخفاء الثغرات، ومعاينة من يكشفها، حتى تتحول المؤسسة كلها إلى آلة لحماية صورة القائد بدلاً من حماية الحقيقة. لكن سليمان عليه السلام لا يتصرف بهذه الطريقة؛ لم يغضب لأن هدهداً جاء بمعرفة لم تكن عنده، ولم يقل: كيف تزعم أنك

أحطت بما لم أحط به؟ بل انتقل مباشرةً إلى التحقق: ﴿سَنَنْظُرُ﴾. وهذا وحده درس في قوة النفس؛ فالواثق لا يخاف من المعلومة التي تكشف حدود علمه.

ولعل أعظم الناس بصراً بحدودهم هم أقدرهم على توظيف بصائر الآخرين. أما الذي يظن نفسه مكتفياً بذاته فإنه يحوّل كل من حوله إلى زوائد. وهكذا يمكن لقوة ضخمة أن تصبح أضعف من ضعف صغير؛ لأن الضعيف إذا عرف ضعفه بحث عن يكمله، أما القوي إذا جهل محدوديته فقد يغلق الأبواب التي تأتيه منها النجاة.

إن الهدهد في القصة ليس خصماً لسلطة سليمان، بل أداة من أدوات كآلهاء. وهذا فارق بالغ الدقة: الاختلاف في المعرفة داخل المنظومة لا يعني التردد عليها، بل قد يكون من أعظم أسباب قوتها. إن صاحب الرؤية الأخرى لا ينتقص منك حين يريك ما لم تر، وإنما يضيف إلى قدرتك عيناً جديدة. وصاحب الخبر الذي يصح تقديره لا يهدم هيبتك، بل يمنع هيبتك من أن تقودك إلى الخطأ.

وفي الحياة الحديثة يتكرر المشهد بصورة مختلفة. قد يجلس المدير أمام لوحة تحتوي آلاف المؤشرات، لكنه لا يعرف ما يحدث في غرفة صغيرة في آخر المبنى. وقد يمتلك المسؤول أجهزة أمنية وتقارير دورية، ثم تكون إشارة الخطر الأولى في كلمة يسمعهها موظف ميداني لا يملك حق الدخول إلى مكتبه. وقد يمتلك الطبيب أحدث الأجهزة، ثم يضيف المريض بجملة عن إحساس صغير معلومة تغير اتجاه التشخيص. وقد يقرأ الباحث آلاف الدراسات، ثم يأتي اكتشافه الكبير من ملاحظة عابرة لم

ينتبه إليها من سبقه. وهكذا تظل الحقيقة توزع نفسها على البشر بطريقة تكسر احتكار أي عقل لها.

إن الله سبحانه لم يجعل المعرفة الإنسانية مركزة في فرد واحد، بل وزع المواهب والمدارك والخبرات بين الخلق، حتى يظل الاجتماع ضرورة، والاستماع فضيلة، والتواضع شرطاً من شروط الرشد. ولو أحاط فرد بشؤون الحياة كلها لاستغنى عن الناس، ولكن الإنسان خلق محتاجاً في جسده ومعرفته وتجربته؛ يحتاج إلى من يعرف ما لا يعرف، ويرى ما لا يرى، ويجرب ما لم يجرب.

ومن هنا يصبح «الصغير» مفهوماً نسبياً. قد يكون صغيراً في الرتبة كبيراً في المعلومة، صغيراً في المال كبيراً في التجربة، صغيراً في الشهرة كبيراً في البصيرة. ومن الخطأ أن ننقل ترتيب الناس في السلطة إلى ترتيبهم في الحقيقة؛ فالحقيقة لا تعترف دائماً بالسلام الإدارية. قد تبدأ من أدنى الطوابق وتصعد، وإذا منعها النظام من الصعود ظل الخطأ في الأعلى حتى يكبر.

ومما يضاعف المفارقة أن الهدهد نفسه الذي كان غيابه قبل لحظات موضع مساءلة وعقوبة محتملة، صار بعد لحظات صاحب أهم معلومة في المجلس. كم من شخص حكمنا عليه من غيابه قبل أن نعرف ماذا كان يفعل في غيابه؟ وكم من حدث بدا لنا خلافاً في النظام، ثم انكشف أنه الطريق الذي جاء منه ما سيغير النظام كله؟ إن العقل العجول يريد أن يفسر كل شيء فور وقوعه، لكن قصة الهدهد تترك نافذة واسعة لاحتمال أن يكون خلف الصورة الأولى معنى لم يصل بعد.

لقد خرج المدهد من مجال رؤية سليمان، لكنه لم يخرج من مجال العناية الإلهية، وعاد من غيبته حاملاً سبباً لتحرك دعوةٍ إلى أمةٍ وملكة. وكأن القصة تقول لنا إن ما لا تراه الآن ليس بالضرورة عدماً، وإن المساحة الواقعة خارج إدراكك قد تكون ممثلةً بأحداث تنضج بعيداً عنك، ثم تأتيك في لحظة واحدة فتغيّر فهمك لما سبق.

إن أعظم علاج لعمى القوة هو أن يبقى في داخل صاحبها مكانٌ فارغ لما لا يعرف. مكان لا تملؤه الافتراضات ولا الهيبة ولا يقين المنصب، بل يظل مفتوحاً لاستقبال المعلومة القادمة من الميدان، ومن المخالف، ومن الصغير، ومن الهامش. وكلما ضاق هذا المكان، بدأ الإنسان يتحول من قائد للواقع إلى أسير للصورة التي كوّنها عنه.

الفصل الثالث

فلسفة الإحاطة

الفرق بين أن ترى الشيء وأن يحيط به عليك

للكلمات القرآنية كثافة لا تسمح للمتدبر أن يعبرها مسرعاً، ومن هذه الكلمات لفظ ﴿أَحَاطْتُ﴾؛ فهو لا يقول: «علت»، مع أن العلم داخل في المعنى، ولا يقول: «رأيت»، مع أن المشاهدة كانت طريقاً إليه، وإنما يستخدم لفظاً يصنع في الذهن صورة الدائرة التي تلتف حول الشيء حتى لا يبقى جزء منه خارجها. ومن هنا كانت الإحاطة أبلغ من المعرفة الجزئية، لأنها تشير إلى إدراك تتجمع فيه أطراف المعلوم حتى يصبح له في النفس شكل واضح وحدود متماسكة.

المرور على الأشياء ليس إحاطةً بها. تستطيع أن تمر بمدينة كاملة دون أن تعرف روحها، وأن تقرأ كتاباً دون أن تدخل إلى فكرته، وأن تعيش سنوات مع إنسان دون أن تفهم أعماقه، وأن تحفظ آلاف المعلومات عن قضية ثم تظل عاجزاً عن إدراك نظامها الداخلي. ثمّة فرق هائل بين أن تقع الأشياء في مجال بصرك وبين أن تقع في مجال فهمك؛ وفرق آخر بين أن تفهم جانباً منها وبين أن تحيط بما يلزم للإخبار عنها على وجه موثوق.

ولذلك فإن عصر وفرة المعلومات ليس بالضرورة عصر الإحاطة. بل ربما ازداد الإنسان تعرضاً للمعرفة وقلّ عمقه فيها؛ تمر أمام عينيه في ساعة واحدة أخبار من عشرات البلدان، وأفكار من مئات الأشخاص، وصور من آلاف الأمكنة، فيشعر أن

العالم صار في راحة يده، بينما قد يكون الذي حدث في الحقيقة أن العالم مرّ أمامه دون أن يسكن في فهمه. إن وفرة ما نراه يمكن أن تصنع وهماً بأننا نعرف؛ كما أن السير السريع فوق سطح البحر لا يعني أننا عرفنا أعماقه.

الإحاطة تحتاج إلى الوقوف، إلى جمع الأطراف، إلى التمييز بين المظهر والجوهر، بين الواقعة ودلالاتها، بين ما حدث ولماذا حدث وما الذي يمكن أن يترتب عليه. والهدهد لا يقول: رأيت امرأة على عرش، ثم يتوقف؛ وإنما يصف ملكاً، وقوماً، وموقفاً عقدياً، وواقعاً دينياً، حتى تنتظم الجزئيات في صورةٍ يمكن أن يُبنى عليها موقف. إنه لم يحمل صورةً، بل حمل «نبأ».

والنبأ في العربية ليس مجرد أي خبر عابر؛ إن فيه معنى الشأن والأهمية، ولذلك جاء الوصف: ﴿بَنَبَأٍ يَقِينٍ﴾. فالقصة ترفع معيار نقل المعرفة: ليس كل ما رأيت يستحق أن يكون نبأً، وليس كل نبأ يستحق أن يتخذ أساساً للقرار، حتى يقوم عليه من دلائل اليقين ما يحره من الظنون.

لكن المفارقة الكبرى في لفظ الإحاطة هي أن الهدهد، وهو يقول: ﴿أَحْطْتُ﴾، يثبت في اللحظة ذاتها حدود الإحاطة البشرية؛ لأن قوله لسليمان: ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ يعني أن الإحاطة هنا جزئية، محصورة بموضوع محدد. للهدهد دائرة عرفها، ولسليمان دوائر يعرفها الهدهد ولا يعرفها، وفوق الجميع علم الله الذي لا يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهنا ينتقل التدبر من المعرفة إلى العبودية. إن كل إحاطة بشرية تحمل في داخلها اعترافاً ضمنياً بعدم الإحاطة بما عداها، إذا كان صاحبها عاقلاً. كل معلومة جديدة لا توسع حدود العلم فقط، بل تحرك حدود الجهل إلى مسافة أبعد. كأن العقل كلما فتح باباً وجد وراءه ممرات جديدة، وكلما اعتلى جبلاً رأى سلاسل جبال لم يكن يراها من الوادي. ولهذا لا تقود المعرفة العميقة عادةً إلى الغرور، وإنما إلى التواضع؛ لأن الجاهل وحده يستطيع أن يتخيل العالم بسيطاً بما يكفي ليحيط به.

إن الطفل يسأل سؤالاً ويظن أن له جواباً واحداً، والمتعلم يبدأ في رؤية طبقات السؤال، والعالم يرى وراء كل جواب أسئلةً جديدة. كلما اتسع الوعي ازداد العالم تعقيداً في عين صاحبه، لا لأن الحقائق أصبحت غامضة بالضرورة، بل لأنه صار أبصر بتداخل الأسباب وتشابك السنن وحدود الأدوات.

وعند هذه النقطة يمكن أن نفهم الفارق الجوهرى بين الإحاطة الإنسانية والإحاطة الإلهية. الإنسان يحيط من داخل الزمن، وبعد وقوع الشيء غالباً، ويقدر ما نتاح له الأدلة، ومن زاوية محدودة، وقد يدخل عليه النسيان والخطأ وسوء التأويل. أما علم الله سبحانه فليس من جنس علم خلقه، ولا يلحقه ما يلحق إدراك البشر من حدود ونقص؛ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾. وهذه ليست مجرد عقيدة نظرية، بل هي حقيقة ينبغي أن تعيد ترتيب شعور الإنسان بذاته.

فإذا أحاط الله بكل شيء علماً، وأنت لا تحيط إلا بما شاء لك أن تحيط به، فكيف يتحول بعض علمك إلى كبر؟ إنك لم تخلق العقل الذي عرفت به، ولا المادة

التي درستها، ولا القوانين التي اكتشفتها، ولا القدرة التي مكنتك من الربط والاستنتاج؛ أنت تتحرك داخل كون سبقك نظامه، ثم تكشف شيئاً من آثار السنن التي أودعها الله فيه. وكل اكتشاف حقيقي ليس خلقاً للحقيقة من العدم، بل وصول متأخر إليها.

كان قانون الجاذبية يعمل قبل أن يصوغه الإنسان، وكانت النجوم تسير في أفلاكها قبل أن تُبنى المراصد، وكانت الخلايا تحمل أسرارها قبل أن يولد المجهر. وما نسميه «اكتشافاً» هو لحظة لحاق العقل بحقيقة كانت قائمة دونه. وهذا وحده كافٍ لتربية التواضع: العالم لا يبدأ حين نعرفه.

بل إن أنفسنا، وهي أقرب الأشياء إلينا، ما زالت تحوي من الأسرار ما يجعل دعوى الإحاطة مثيرةً للتأمل. كم يعرف الإنسان عن دماغه ولا يزال مجهول؟ كم يعرف عن الوعي ثم يقف أمام أسئلته؟ كم يعرف عن دوافعه الخفية ثم يكتشف بعد أعوام أن قراراً ظنه عقلاً كان يتحرك تحته طبقات من الخوف والرغبة والذاكرة لم يكن واعياً بها؟

لهذا فإن من أعظم صور الحكمة أن تميز دائماً بين ما نعلمه، وما نظنه، وما نرجحه، وما نجهله. فاختلاط هذه المساحات هو أصل كثير من الطغيان المعرفي؛ حين يتحول الظن في لغة الإنسان إلى يقين، والاحتمال إلى حقيقة، والجزء إلى كل. وما أكثر من أحاط بجانب من القضية ثم تحدث كأنه أحاط بالقضية كلها.

إن الإحاطة الحقيقية تجعل لغتنا أكثر دقةً لا أكثر ادعاءً. العالم المتواضع لا ينجل من الكلمات التي تضع حدوداً للمعرفة: «بحسب ما نعلم»، «في حدود الأدلة المتاحة»، «يظهر»، «يترجح»، «لا نعلم بعد». هذه ليست علامات ضعف، بل علامات أمانة عقلية. إن الجهل المعترف به أقل خطراً بكثير من معرفة صغيرة متنكرة في ثياب اليقين المطلق.

ولعل من أجمل ما نتعلمه من لفظ ﴿أَحَطْتُ﴾ أن الإحاطة ليست امتلاكاً للحقيقة، بل مسؤولية تجاهها. حين تعرف، تصبح مطالباً بما يقتضيه علمك. الهدهد لم يحتفظ بمعرفته ليتلذذ بأنه يعرف ما لا يعرف الملك؛ عاد بها. المعرفة التي لا تتحول إلى هداية أو إصلاح أو قرار رشيد يمكن أن تتحول إلى ترف ذهني. أما العلم الذي يؤدي رسالته فهو الذي يعود من سبأ إلى مجلس سليمان، ويجعل ما رأى جزءاً من حركة الخير في العالم.

الفصل الرابع

انكسار كبرياء المعرفة

الإنسان الحديث أمام هدهده الجديد

لم يعرف عصرٌ من عصور الإنسان تضخماً في أدوات المعرفة يشبه ما نعيشه اليوم. يحمل الفرد في هاتف صغير ما كان يحتاج في أزمنة سابقة إلى مكتبات وأسفار وكتب ورحلات، وتدور الأقمار حول الأرض تلتقط صوراً لمساحات لم يكن الإنسان يستطيع بلوغها، وتفك الشفرة الوراثية، وتراقب الذرات، وترصد المجرات على مسافات يكاد الخيال يعجز عن تصورها، وتجمع الحواسيب كميات من البيانات لا يستطيع فرد أن يقرأ جزءاً ضئيلاً منها طوال حياته. ثم جاءت الخوارزميات والذكاء الاصطناعي لتضيف طبقة جديدة: آلات تستخرج الأنماط من جبال المعلومات، وتنبأ، وتصنف، وتولد النصوص والصور، وتنجز في ثوانٍ ما كان يحتاج إلى ساعات وأيام.

كل ذلك فتح للإنسان أبواباً عظيمة من النفع، لكنه أعاد إليه في صورة جديدة إغراءً قديماً: وهم الإحاطة.

فحين تصبح المعلومات قريبة جداً، يختلط أحياناً امتلاك الوصول إليها بامتلاك الفهم. وحين تجيب الآلة سريعاً، ينسى الإنسان أن سرعة الجواب لا تساوي دائماً عمق المعرفة. وحين تنبأ الخوارزمية بسلوك عدد كبير من البشر، قد يتسلل إلينا الوهم أن الإنسان صار قابلاً للاختزال في معادلة. وحين تلتقط الأقمار صور الأرض كلها

تقريباً، قد نشعر أننا أصبحنا نرى العالم، بينما تظل خلف الصور طبقات من الدوافع والنوايا والآلام والأقدار لا تستطيع الكاميرا أن تصورها.

إن الخوارزمية تستطيع أن تجمع آثار الإنسان، لكنها لا تتحول بذلك إلى علم مطلق به. تستطيع أن تدرس ما فعله بالأمس وأن تستنتج احتمال ما سيفعله غداً، لكنها تعمل داخل حدود البيانات والنماذج والاحتمالات التي أنشئت عليها. وكلما ازدادت قوتها صار واجب الإنسان أن يزداد دقةً في التفريق بين قدرة الآلة على المعالجة وبين دعوى الإحاطة بالوجود.

ليست المشكلة في الآلات؛ المشكلة في الخيال الذي نبنيه حولها. فالإنسان يميل دائماً إلى تأليه أدواته حين تنجح. فعل ذلك مع القوة العسكرية حين ظن أن من يملك السلاح يملك التاريخ، ومع الاقتصاد حين ظن أن الأرقام تستطيع تفسير الإنسان كله، ومع بعض صور العلم حين حاول تحويل المنهج القادر على دراسة المادة إلى فلسفة تدّعي أن ما لا تقيسه أدواتها لا وجود له. واليوم يمكن أن يقع الوهم نفسه مع الذكاء الاصطناعي: ما دامت الآلة تستطيع معالجة ما لا نستطيع معالجته، فربما أوشكت المعرفة أن تحيط بكل شيء.

وهنا يعود الهدهد من سبأ إلى عصر الخوارزميات، لا ليقاوم العلم، وإنما ليضع أمامه جملةً واحدة: ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾.

ستظل دائماً هناك «سبأ» خارج نافذتك، مهما كثرت النوافذ. ستظل هناك معلومة لم تدخل النموذج، وتجربة بشرية لا تمثلها البيانات، وحدث لم يقع بعد فلا تستطيع أرشيفات الماضي أن تحتويه، ومتغير صغير يهدم توقعاً ضخماً، وسؤال لا تزال أدواتنا أعجز من أن تمسك بأطرافه. ليست هذه دعوة إلى ازدياء العلم، بل إلى وضعه في مقامه الشريف الصحيح: قدرة عظيمة من قدرات الإنسان، لكنها قدرة مخلوقة ومحدودة.

لقد تقدمت المعرفة الإنسانية حين تواضعت للطبيعة، لا حين تكبرت عليها. العالم الحقيقي يذهب إلى التجربة مستعداً لأن تهدم فرضيته؛ فإذا جاءت النتيجة بخلاف ما أراد لم يعاقب النتيجة، بل راجع فكرته. هذه في جوهرها صورة من صور ﴿سَنَنْظُرُ﴾؛ أي إننا لن نجعل رغبتنا بدلاً عن الفحص، ولا سلطتنا على المختبر بدلاً عن صدق الواقع.

لكن الإنسان يغادر روح العلم حين تتحول نظريته إلى جزء من كبريائه، فيصعب عليه الاعتراف بما يناقضها. هنا لا يعود يبحث عما هو صحيح، بل عما يحفظ صورته عن نفسه. وكلما كبرت المؤسسة أو الشهرة أو المدرسة الفكرية ازدادت كلفة الاعتراف بالخطأ، ومن هنا تأتي أهمية التواضع قبل المعرفة وبعدها.

إن قصة الهدهد تقدم نموذجاً بالغ الحداثة لإدارة المعرفة: المركز لا يملك كل البيانات، الأطراف تلتقط ما يغيب عنه، الخبر الجديد يجب أن يصل دون أن تمنعه

هية السلطة، ثم لا يُقبل مجرد ثقة ناقله بل يُختبر، فإذا ثبت غير القرار. إنها، بهذه الروح، تصلح لمنظمة علمية كما تصلح لدولة، ولختبر كما تصلح لفرد.

أما على المستوى الروحي، فالمعنى أعمق. إن الإنسان الحديث استطاع أن يمد بصره إلى المجرات، لكنه لا يستطيع أن يضمن النبضة التالية من قلبه. يحلل عوامل العمر، لكنه لا يملك الأجل. يدرس السحب والرياح بدقة متزايدة، ومع ذلك تظل توقعاته احتمالية قابلة للمراجعة. يبني نماذج للأسواق، ثم تأتي واقعة لم تدخل حساباته فتغير المسار. يراقب المجتمعات، ثم تنهض من التفاصيل الصغيرة تحولات لا يراها كبار المحللين إلا بعد أن تبدأ.

وهذا ليس نقصاً معيماً في الإنسان؛ العيب أن ينكر النقص. المحدودية جزء من طبيعة المخلوق، والعبودية تبدأ حين لا نحاول أن نسرق لأنفسنا خصائص الربوبية. الله سبحانه هو الذي لا يعزب عن علمه شيء، أما نحن فنتعلم بعد جهل، وتذكر بعد نسيان، ونراجع بعد خطأ، ونرى من زاوية ثم نكتشف زاوية أخرى.

إن أرق ما يمكن للمعرفة أن تصنعه في الإنسان ليس شعور السيطرة، بل شعور الخشوع. كلما عرف شيئاً من دقة الخلية ازداد دهشاً، وكلما دخل إلى تعقيد الكون ازداد شعوراً بضالة نفسه، وكلما اكتشف قانوناً رأى خلفه نظاماً لم يخلقه هو. المعرفة التي تنتهي بالغرور توقفت غالباً عند سطحها؛ أما التي تبلغ أعماقها فإنها تجعل الإنسان يقف أمام هذا الوجود كما يقف من دخل قصرًا هائلاً ثم عرف أنه لم ير منه إلا غرفة.

ولعل من أكبر أخطاء عصرنا أننا نقيس تقدم الإنسان بما صار يستطيع فعله، ولا نسأل بما يكفي: ماذا فعلت هذه القدرة بصاحبه؟ قد نزيد سرعة الوصول إلى المعلومة ولا نزداد حكمة، وقد نتسع في السيطرة على الأشياء بينما تضيق قدرتنا على السيطرة على أهوائنا. يمكن للإنسان أن يعرف أخبار العالم كله ثم يجهل حقيقة نفسه، وأن يمتلك ألف وسيلة اتصال ولا يحسن الإصغاء لمن يجلس أمامه، وأن يتحدث عن الوعي ثم يكون أسيراً لغضبه وشهوته وصورته الاجتماعية.

المعرفة ليست دائماً نجاةً إن لم يصحبها ميزان أخلاقي. فكما عظمت الأدوات عظمت مسؤولية اليد التي تستخدمها، وكما ازداد الإنسان قدرةً على الإحاطة بجانب من العالم أصبح أشد حاجةً إلى التواضع أمام ما لا يحيط به. إن أخطر الجهل ليس ألا تعرف، بل ألا تعرف أنك لا تعرف؛ لأن الجاهل الذي يدرك جهله يسأل، أما الجاهل الذي يتوهم الإحاطة فيحكم.

ولذلك قد تكون جملة الهدهد من أكثر الجمل القرآنية حاجةً إلى أن تُكتب فوق أبواب المختبرات ومراكز القرار والمنصات الرقمية، لا بوصفها اعتراضاً على العقل، وإنما ميثاقاً لشرف العقل: هناك دائماً ما يمكن أن يكون خارج ما أحطت به.

لا تجعل خريطتك هي الأرض، ولا نموذجك هو الواقع، ولا أرشيفك هو التاريخ كله، ولا ما استطاعت أدواتك قياسه هو الوجود كله. احتفظ دائماً بمساحة في العقل للمفاجأة، وبنافذة للخبر القادم من جهة لم تتوقعها، وشجاعةً أخلاقية تسمح لك إذا ظهر الدليل أن تقول: لم أكن أعلم هذا.

ذلك الاعتراف ليس هزيمة العقل، بل بلوغه سن الرشده.

الخلاصة

رهبة المساحة التي لا نراها

ربما كان أعمق ما تفعله فينا عبارة ﴿أَحَطُّ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ﴾ أنها تنقلنا فجأة من الاطمئنان إلى خرائطنا إلى رهبة المساحة الواقعة خارجها. نحن نعيش عادةً داخل ما نعرف كأن العالم ينتهي عند حدوده، ثم تأتي لحظة أو معلومة أو إنسان أو تجربة تفتح في الجدار نافذة، فنرى أن وراء ما حسبناه نهايةً أفقاً آخر لم يكن في حسابنا.

كم من شيء يجري الآن خارج علمنا وسيدخل حياتنا غداً؟ كم من سبب يعمل بعيداً عن أبصارنا ثم ستظهر آثاره بعد حين؟ كم من إنسان نظنه هامشياً يحمل في داخله معرفة نحتاج إليها؟ كم من فكرة نرفضها لأن قائلها صغير في أعيننا، لا لأن حجتها ضعيفة؟ وكم من يقين نحمله اليوم سيتبين لنا غداً أنه لم يكن إلا إحاطةً بجزء صغير من صورة أوسع؟

إن التواضع أمام المعرفة ليس انحناءً مذلاً للعقل، بل هو وقوف العقل في مقامه الصحيح. العقل عظيم لأنه يعرف، وأعظم لأنه يعرف أنه محدود. والإنسان يرتفع بالمعرفة، لكنه يضل حين يجعل ما ارتفع إليه سقفاً للوجود كله.

لقد كان سليمان عليه السلام أعظم من أن تهزه جملة الهدهد في مقامه؛ لأن النبوة والملك لم يمنعهما من استقبال المعرفة من موضع لم يكن يتوقعه. وكانت قيمة

الهدهد في أنه لم يخش أن يقول ما علم، ولم يتجاوز ما علم. فاجتمعت في المشهد فضيلتان يحتاج إليهما كل عصر: شجاعة من يعرف، وتواضع من يسمع.

وبينهما تولد الحقيقة.

لن يكون الإنسان حكيمًا لأنه أحاط بالكثير فحسب، بل لأنه كلما اتسعت دائرة ما أحاط به رأى بوضوح أكبر المحيط الهائل الذي لم يحط به. وكل معرفة صادقة ينبغي أن تترك في القلب نافذة نحو المجهول، لا خوفًا منه، وإنما أدبًا مع الحقيقة، وأدبًا مع النفس، وأدبًا مع الله الذي قال عن علم خلقه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

وهنا يبلغ التدبر منتهاه: إن الهدهد الذي قال لسليمان ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ يهمس في أذن كل إنسان بعد آلاف السنين: لا تغتر بما دخل دأرتك؛ فالكون أوسع من نافذتك، والحقيقة أكبر من أدواتك، والواقع أغنى من تصوراتك، وما خفي عنك لا يعدم لأنه خفي.

ولعل الرشد كله يبدأ من هذه الجملة الداخلية التي ينبغي أن تظل مستيقظة في القلب والعقل:

ثمة دائماً ما لم أحط به.

فإذا بقيت هذه الجملة حيّة في أعماق العالم لم يتحول علمه إلى طغيان، وإذا بقيت في قلب القائد لم تتحول سلطته إلى عى، وإذا بقيت في نفس المفكر لم يتحول فكره إلى

سجن، وإذا بقيت في وعي الإنسان الحديث لم تتحول أدواته المدهشة إلى أصنام جديدة.

وعندها فقط يكون العلم نوراً؛ لأنه لا يحجب عن صاحبه رؤية حدوده.

ويكون العقل عظيماً؛ لأنه لا يدّعي مقاماً ليس له.

ويكون الإنسان أقرب إلى الحكمة؛ لأنه كلما ازداد إحاطةً، ازداد رهبةً أمام ما لم يُحِطَ به.